فنجان... قهوة

يخرج إلى الشرفة، بعد القيلولة، يضع على الحافة قفص بلبله الأصفر، يثبت بين القضبان قطعة سكر، يأخذ البلبل في نقرها، ثم يرسل سجعه، والوفرة الناعمة من الريش تقبُّ في عنقه، وتأتي فلَّة، قطة زوجته المدللة، لتقعد على الحافة، قبالة القفص، تسترخي، ونسمات الخريف الرطبة تزيد من نعاسها، يهمس لها:

ـ انتظري ريثما تأتي زوجتي، أنا لا شأن لي بك، أنا أخشى مخالبك، أنا شأني كله مع هذه الفلات والقرنفلات، هذه لا شوك لها ولا مخالب.

يمضي إلى شجيرات الفل والقرنفل المصفوفة على حافة الشرفة، يتلمس بأنامله الراعشة فلة بيضاء متفتحة، وريقاتها مضاعفة متراكبة بعضها فوق بعض، شذاها عبق، الآن عرف سر تفضيله الفل والقرنفل على الورد، في شبابه كان يفضل الورد، ولكنه الآن يفضل الفل والقرنفل والياسمين، هذه الشجيرات ناعمة، مسالمة، تمنح ذاتها بكل ودّ ولطف، لا شوك فيها، منذ سنتين أو ثلاث وربما أكثر حاول قطف وردة، شاكته، أدمت إصبعه، الآن فقط أدرك سرَّ تناسيه للورد، هو يحبه، يتمناه، لكنه اضطر إلى تناسيه.

وتنساب إلى روحه أشذاء زهور يانعة كأنها العسل، وتدخل زوجته إلى الشرفة تحمل في صينية صغيرة مدورة ثلاث كؤوس رقيقة جداً شفافة لها خصر ناحل، وإلى جوارها إبريق زجاجي شفاف يتألق في داخله مشروب ذهبي.

ينهض، يتناول من زوجته الصينية، يضعها على حافة الشرفة، وهو يقول:

ـ تأخرت اليوم جارتنا أم ميشيل، ليس من عادتها؟

ويقرع الجرس، وتسرع زوجته إلى الباب تفتحه.

أم ميشيل هي جارته، المرأة الوحيدة التي يأنس بها بعد زوجته، هي في الستين، أكبر من زوجته بنحو خمس سنين، تتحدث، ولكنها لا تثرثر، لا تعيد الحديث، ولا تسهب فيه، يرتاح إليها، لا بد من أن تشاركه مع زوجته كل يوم عصراً كأس الزهورات في شرفته، هي جارة العمر، توفي زوجها منذ بضع سنين، أولادها كلهم بعيدون عنها، تشتتوا في الآفاق، بحثاً عن الرزق.

وتدخل إلى الشرفة صبية في السابعة عشرة، سمراء، كحيلة، ممشوقة القوام، في بنطال ضيق، وقميص مشدود على الصدر، مفتوح حتى فجوة النهدين، شعرها الأسود الطويل مرسل على الكتفين، تحييه، ينهض لاستقبالها، يدها الناعمة ترتاح في يده الراعشة، وهي تنطلق متحدثة بمرح:

ـ حدثتني خالتي أم ميشيل عنك، وعن بلبلك، أنا أحب البلابل.

تدخل في إثرها جارته أم ميشيل، تحجل في إثرها زوجته، وهي تحمل كأساً جديدة، تضعها في الصينية، تتكلم أم ميشيل وهي تقدِّم الصبية:

ـ لينة، ابنة أختي، وصلت اليوم من العاصمة، جاءت لزيارتي.

ينهض العجوز، يصب المشروب العسلي في الكؤوس الأربع، وهو يعلق:

ـ لينة اسم جميل، معناه النبات الطري الناعم، رزقني الله أربعة صبيان، ولم أرزق ببنت، كنت أتمنى أن أرزق ببنت كي أسميها لينة، أنا أحب هذا الاسم كثيراً.

تعلق لينة وهي تمضي إلى البلبل:

ـ شكراً يا عم، أنا أحب اسمي وإن كنت لا أعرف معناه، الآن أحببته أكثر.

تمد إصبعها عبر قضبان القفص، البلبل ينقر إصبعها بلطف، تكركر وتضحك صائحة:

ـ يا إلهي؟ كم هو لطيف وناعم؟

وتعلق زوجته العجوز:

ـ لا تنسي قطتي فلة، المسي شعرها، لا حظي كم هي لطيفة، إذا لم تمسحي على شعرها حزنت، زوجي لا يداعبها أبداً، هي تغار من بلبله، لا تثيري غيرتها.

تضحك، وهي تمسح رأس القطة:

ـ لا أحب القطط كثيراً، أخشى مخالبها.

يسر العجوز للتعليق، يتكلم وهو يملأ الكؤوس:

ـ أنت مثلي، أنا لا أحب القطط.

ترد زوجته:

ـ هل نسيت؟ كم كنت تحب القطط، ولاسيما فلة، كنت تستثيرها عامداً حتى تخدش يدك، الآن لأنها أصبحت عجوزاً لم تعد تحبها.

يرد بهدوء وهو يضحك:

ـ بلبلي هو الآخر عجوز، ولكن ما أزال أحبه.

ينهض، يأبى إلا أن يقدم بنفسه الكأس الأولى إلى ضيفته الشابة، يقدم الثانية إلى جارته أم ميشيل، وهو يعلق:

ـ أهلاً بك وبضيفتك.

يضع كأساً أمام زوجته، يقعد في كرسيه، يحمل الكأس الرابعة بالإبهام والسبابة، يضع تحتها إصبعين أخريين،

يحتضنها، يرفعها إلى فمه، يتنسمها، يتلمس دفئها الناعم، يحس فيها الحياة، وهو يرنو بعينيه إلى عيني لينة السمراء، يقبس من شفتيها الورديتين الشذى.

وتتكلم زوجته وهي تحدث لينة:

ـ زوجي يفضل عند العصر بعد استيقاظه من القيلولة كأس الزهورات.

وتتكلم جارته أم ميشيل:

ـ يأبى جاري أبو فؤاد وزوجته إلا أن أشرب معهما كل يوم عصراً كأس الزهورات، هما جيران العمر، أنا أنسى معهما كل شيء، أحس مع كأس الزهورات عبق الربيع.

ويتكلم العجوز:

ـ أنا بها أختصر كل الفصول، هي خلاصة الزهور، فيها البابونج والزعتر، وشقائق النعمان وورق الصفصاف وزهر الزيزفون وزهر النارنج والورد الجوري وزهر الختمية والميرمية، هي أخلاط من كل الأنواع وكل الفصول، فيها الربيع والخريف والصيف والشتاء، بها أجمع زهر الوادي إلى زهر الجبل، وأعشاب الأرض الحمراء إلى أعشاب الأرض

الصخرية، هذه الكأس التي بين يديك أختصر بها العالم.

وترفع لينة السمراء الكأس بيدها البضة الناعمة إلى فمها، يحس العجوز بشفتيها السمراوين تلمسان الكأس، ترشفان الذهب السائل، يحس بها تتنسم العبق.

وتتكلم زوجته:

ـ معظم هذه الزهور يجنيها زوجي بنفسه، يزرعها هنا في حديقة المنزل، أو يستنبتها، يتعهدها، يرعاها، يقلب التربة بيده، يغمس أصابعه في التراب، يسقيها كل صباح، كأنه يسقيها من عينيه.

وتنهض الجارة العجوز، تدعو ابنة أختها إلى الإطلال على الحديقة، ثم تقول لها:

ـ انظري هناك، الشجرة الكبيرة عند الباب هي شجرة الزيزفون، والشجرة الكبيرة أيضاً التي هناك هي شجرة النارنج، وهذه شجيرات الورد الجوري، هناك في تلك الأحواض استنبت جاري الزعتر وشقائق النعمان، وهنالك أنواع كثيرة من الزهور، يعنى بها أبو فؤاد، مثل تمر الحنة والقرطاسة والمرجانة والهرجاية واللكية والملكة والغريب والمنثور والبنفسج والنرجس،ونباتات كثيرة مثل السجادة

بألوانها المختلفة وورق الصالون وورق الليمون واللبلابة وزهر الهوى والعطرية والريحان بأنواعه المختلفة، أنا أعرف حديقة جاري أكثر مما أعرف نفسي، أنا أطل عليها من شرفة منزلي في الدور الثاني، كل صباح أرى جاري وهو يعمل في حديقته، صدقيني كم أتمنى لو أنزل إلى الحديقة لأساعده، أحس بها حديقتي، نحن كما قلت لك جيران العمر، صدقيني عندما أذهب يوم الأحد إلى الكنيسة للصلاة أدعو الله له ولزوجته ولحديقته ولزهوره، قبل أن أدعو لأولادي، وعندما يرجع يوم الجمعة من الصلاة أقف في الباب وأسأله: أرجو ألا تكون قد نسيت الدعاء لأولادي.

وتتكلم زوجته:

ـ صدقيني يا أم ميشيل أنا أسمعه يدعو لك بعد كل صلاة، ويسأل الله تعالى أن يعيد إليك أولادك، فالغربة صعبة والوحدة قاتلة.

تمسح أم ميشيل عبرات تتحدر على وجنتيها، ويتكلم العجوز:

ـ أنا أولادي كلهم هنا في البلد، ولكن كل واحد منهم مشغول ببيته وعمله، يمر أكثر من شهرين ولا يزورنا أحد.

وتتكلم زوجته:

ـ دعونا الآن من حديث الأولاد والغربة، لنعد إلى حديث الزهر، هذه الكأس يا لينة وراءها تعب كبير، زوجي بيده يقطف الزهور، بأصابعه، يأبى استخدام المقص، يغسلها في أوان زجاجية، يزيل عنها الغبار، وفي صحون من بلور في الظل الظليل يجففها، لا يعرضها للشمس، حتى لا يزول عنها الشذى، لا يضعها في أوان معدنية، حتى لا تتفاعل معها، وحتى لا تحرقها، لأنها حارة، وفي أكياس من قماش قطني رقيق يحفظها، في مكان جاف، غير رطب.

ويتكلم العجوز:

ـ التعامل مع الزهور كالتعامل مع نجوم السماء، كالتعامل مع الأطفال الأبرياء، الزهور هي براعم الحياة، هي حاملة أسرار الوجود، وعندما ترشف الشفاه هذا العبق إنما ترشف رحيق الحياة.

يتلقى نظرات لينة الشابة، نظرات حارقة كالشهاب، فيها ألق فيها اتقاد، لا يستطيع لها فهماً، كأنها شقائق النعمان، كأنها زهر اللوز في اندفاعته قبل الأوان.

تأخذ رشفة من الكأس الصغيرة الهادئة، تعيدها إلى الصينية، وهي تقول:

ـ شكراً يا عم، هي هادئة جداً، كما وصفت، ولكن أنا على موعد مع ثلة من الأصدقاء لاحتساء القهوة.

تصمت قليلاً ثم تضيف:

ـ كأس الزهورات لطيفة جداً، ولكن فنجان القهوة هناك مع الصحب في ضجيج المقصف مع الزملاء له طعم آخر، اعذرني.

في عصر اليوم التالي تدخل أم ميشيل إلى الشرفة كعادتها، تتنبه، تسألهما:

ـ لا أشم اليوم أي رائحة، أين الزهورات؟

وتسأل الزوجة:

ـ أين لينة؟ زوجي اشترى اليوم قهوة فاخرة.

ويضيف العجوز:

ـ أحضرتها اليوم من أجل لينة خاصة.

وترد الجارة العجوز:

ـ لينة سافرت في الصباح الباكر.

يلتفت العجوز إلى بلبله الأصفر، ينظر إلى القطة الكسول المستلقية على حافة الشرفة باسترخاء مثل خرقة مبلولة ملقاة بإهمال، يود لو يطعمها البلبل، لو تخدشه بمخالبها،

obeikandl.com

لو يقذف بها وبالبلبل إلى أسفل، لو يقتلع كل شجيرات الفل ليزرع مكانها الورد بكل أشواكه.

ويتكلم العجوز:

ـ لا، سنشرب القهوة معاً على ذكر لينة، أنا سأشرب فنجانين، فنجاني وفنجانها.

تنظر إليه زوجته مدهوشة، تعلق:

ـ لا يا أبو فؤاد، لا تنس، أنت تعاني من الرمال في الكلية، وأخشى عليك ارتفاع الضغط.

وتتكلم الجارة:

ـ أنا أوافقه، فلنشرب القهوة، وإذا سمحت لي بحكم الجوار، أن أذهب إلى المطبخ لأعد القهوة بنفسي، منذ زمن طويل لم نشرب القهوة، وأرجو من جارنا أبو فؤاد أن يقطف لي ورقتين صغيرتين من نبات العطرية، أنا أحب القهوة مع ورق العطرية.

obeikandl.com